تراث الإنسانية

الحكايات

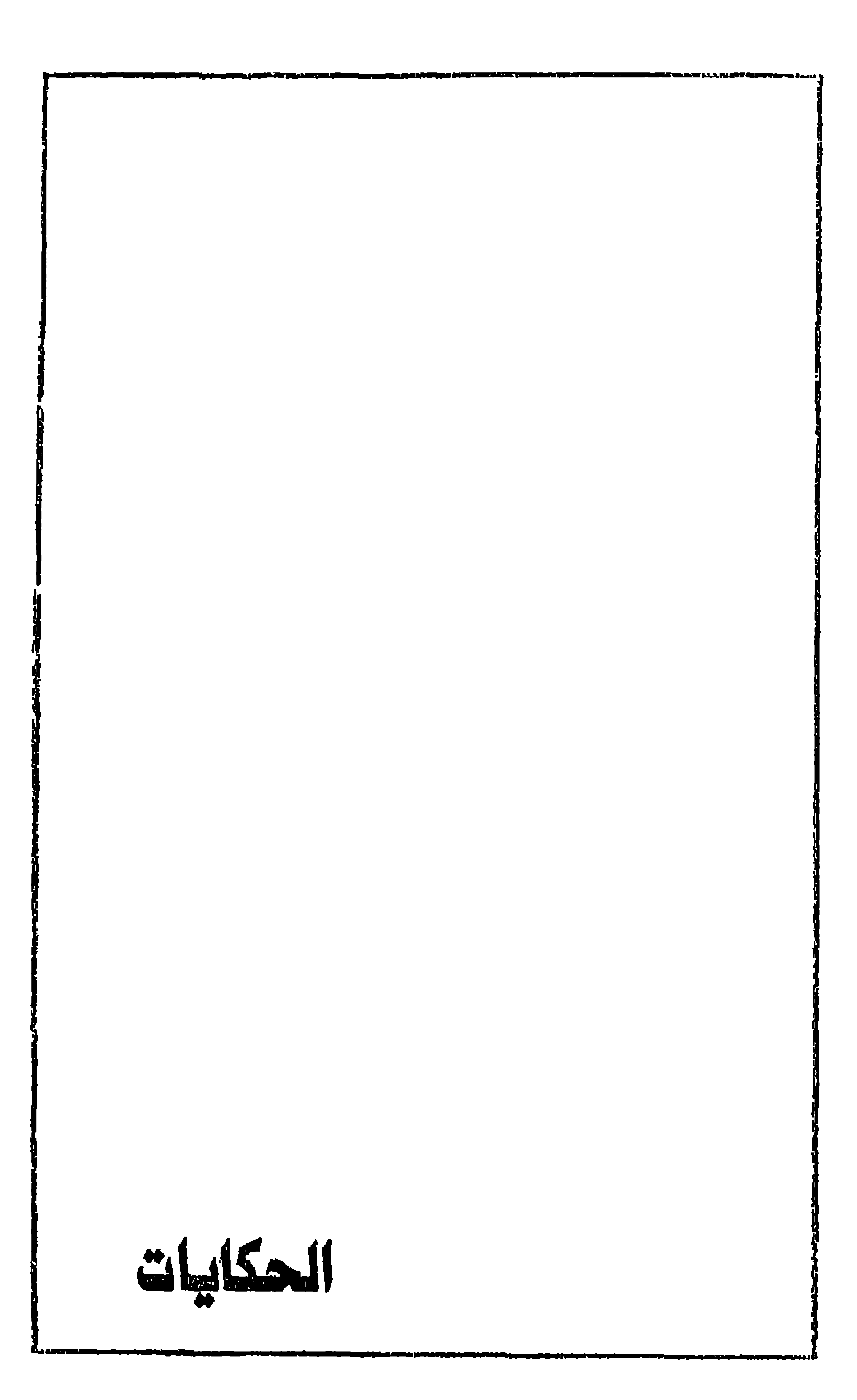
للافونتين

د . على درويش



الهيئة المصرية العامة للكتاب

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٥

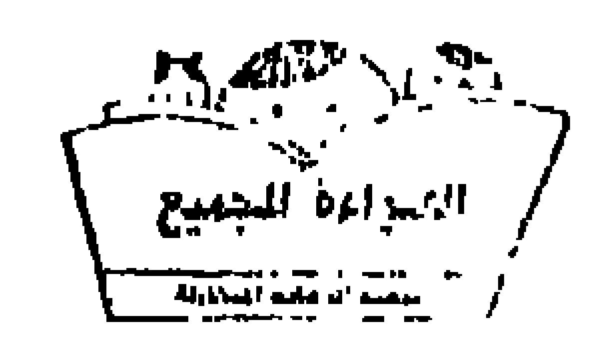

الحكايات



الحكايات

للافونتين

د. على درويش



مهرجان القراءة للجميع ٩٥

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(تراث الإنسانية)

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الحكم المحلى

المجلس الاعلى للشباب والرياضة

التنفيذ : هيئة الكتاب

الانجاز الطباعى والفنى
محمود الهندى

المشرف العام
د. سمير سرحان

الحكايات
للافونتين
د . علي درويش

حياة لافونتين وشخصيته

حقا ان تاريخ الأدب يكتب ببطء ! بالأمس قال معاصرو لافونتين عنه ـ ضمن ما قالوا ـ انه « ساذج » ... واليوم ـ وقد انقضى على وفاته قرابة ثلاثة قرون ـ يجيء أساتذة النقد فيقطعون بأن طبيعته لا تزال لغزا لم يحل بعد : يقول رينيه بريه Benó Bray ان الغموض لا يزال يكتنف حياة لافونتين وتاريخ انتاجه ويقول انطوان آدم Antoine Adam انه لمن الصعب أن يسبر غور هذا الرجل ... وفي الماضي كان الناس يعتقدون أن حكايات لافونتين موجهة الى الأطفال ، ولكن سانت بيف Sainte-Beuve يقول في القرن التاسع عشر : « ان لافونتين الذي يقدم الى الأطفال لا يمكن أبدا للقارىء أن يتذوقه جيدا الا بعد سن الأربعين » ... من هو اذن هذا

الرجل الذى صارت حياته كالأسطورة ، هذا الشاعر الفريد الذى لا يشبه شاعرا آخر على الاطلاق ؟ ماكنه فنه الذى أخفق في تقليده عشرات من الكتاب فى حياته وبعد مماته ؟ سنرى •

ولد لافونتين عام ١٦٢١ في شاتوتييرى Chateau — Thierry (بمقاطعة شمبانيا) ، التي كان أبوه مشرفا على « مياهها وغاباتها » • وتلقى فى البداية دراسة دينية دفعه اليهـا ــ بما كان يعيره اياه من كتب ــ قس سسواسون Soissons الذى لم يلبث هو نفسه أن نصحه بالعدول عنها حين لمس عدم تجاوبها مع استعداده • وتقول رواية أخرى ان أساتذته من رجال الدين هم الذين طردوه لسوء سلوكه ! كان فى الواحدة والعشرين من عمره • ثم ذهب الى Reims لمتابعة تعليمه ، ولكنه لم يفعل أكثر من التقائه ببعض المثقفين أمثال موكروا Maucroix الذى حضه على دراسة القدامى وبعض المحدثين ••• فاولع بافلاطون ، وحفظ عن ظهر قلب أشعار مارو Marot وماليرب Malherbe وراكان Racan .

وفى السادسة والعشرين من عمره أراد أبوه أن يكفل له حياة جادة مستقرة ، فنزل له عن وظيفته ، وزوجه من فتاة عمرها أربع عشرة سنة : أما الوظيفة فوجدها ــ الى حين ــ مواتية لنزوعه الى الكسل والتجوال فى الغابات ••• وأما الزوجة فلم يجد فيها ما يبتغى من المفاتن والمزايا •••

كتب اليها بعد ستة أعوام يقول : « انك لا تلعبين ولا تعملين ولا تهتمين بشئون بيتك ، وكل ما تشغلين به ما يتبقى لك من وقت بعد مقابلة صديقاتك هو قراءة القصص المسلية » ! سيأتى الوقت الذى سيهيم فيه على نفسه والذى سينسيه فيه شروده أن له زوجة وابنا يافعا !

وكاد القدر أن يقضى عليه بأن يظل شاعرا مغمورا من شعراء الريف لولا أن قيض له الله أحد أقاربه ، هو المستشار جانار Jannart الذى صحبه الى باريس حيث قدمه الى مراقب عام المللية فوكيه Fouquet وكان أخطر شخصية فى الدولة بعد الملك · وأعجب به فوكيه فمنحه اعانة دائمة بشرط أن يكتب قصيدة كل شهر · وفى بذخ قصر هذا الرجل الخطير ، وفى ترف قصر دوقة بيون duchesse de Bouillon التى اجتذبته نحوها وأحاطته برعايتها هى الأخرى ألهبت قريحته ··· وهام لافونتين بباريس ، ولم يكن يغادرها الى مقر وظيفته فى منطقة شامبانيا الا فى فترات متباعدة يصرف شئون الوظيفة فى غير اكتراث ، ويبيع الجزء تلو الجزء مما خلفه له أبوه من ملكيات ··· سيأتى اليوم الذى يفقد فيه كل ما ورث ويصبح مفلسا كل الافلاس ! لن ينقذه من الهاوية الا مدام دى لاسبلير Madame de la Sablière التى ستؤويه خلال الفترة الأخيرة فى حياتها ، أى عشرين عاما !

ويروى عن لافونتين أنه لم يكن يفطن الى أنه رزق

موهبة الشعر الا ذات يوم حين قرأ عليه أحد الضباط فى Chateau-Thierry قصـــــيدة لمالـيرب Malherbe عن احدى محاولات اغتيال الملك هنرى الرابـــع • هنا شعر برغبة ملحة فى قرض الشعر ، وبدأ يكتب منه قطعا كانت رديئة كلها ••• على أن الشىء المسلم به هو أن نبوغه لم يظهر الا فى سن الأربعين •• كيف ؟ فى عام ١٦٦١ غضب لويس الرابع عشر على فوكيه ، فأمر بسجنه ، واذا بصداقة لافونتين وعرفانه يطلقان لسانه بأول أشعار تلوح فيها ملامح العبقرية : كتب قصيدة طويلة « L'Elégie aux Nymphes de Vaux » ، وهى التماس بالغ التأثير موجه الى الملك المســتبد ••• فالحق أن لافونتين كان مشـــبعا بروح تلك الصــداقة النادرة التى لم تكتب من وحيها صـفحات كثيرة ، والتى لم يعبر عنهـــا فى الأدب الفرنسى بعمق يستأثر بالنفوس سوى مونتنى Montaigne • وجزع لافونتين لما لحق صديقه فوكيه من عنت الملك الطاغية ، ومرض ، ثم رحل الى ليموزان Limousin • وفى رحلته كان يكتب ما يشبه المذكرات ويوجهه شـــعرا ونثرا الى زوجته ، مذكرات تنطق بالألم والحسرة من أجل صديقه المنكوب •• وتوقف فى طريقه فى أمبواز Amboise ، فبحث عن مبنى سجنها الذى زج فيه بفوكيه ، وجمد أمام بابه ، ولم « يبرح مكانه حتى أدركه الليل » ! لقد كانت الصداقة شيئا حيويا فى حياة لافونتين : ملكت عليه نفسه ، وألهمته فى كثير من أشعاره ، وهى تصلح لأن تكون موضوعا

لرسالة قيمة يتناول فيها الباحث ـ بالضرورة ـ علاقة لافونتين بموليير وراسين وبوالو وشـابل Chapelle وموكروا Maucroix ، فضلا عن فوكيه ٠

وشخصية لافونتين تسترعى الانتباه حقا ، وهى بدورها تكون مادة خصبة لدراسة سيكولوجية شائقة ٠ لندعه أولا يتكلم :

انى أحب اللعب والحب والكتب والموسيقى ٠

والمدينة والقرية ، وبكلمة واحدة كل شىء ٠

ولا شىء قط يعجز عن امتاعى أيما امتاع ٠

حتى ولا تلك اللذة الكئيبة التى يحسها قلب مبتئس٠

وينادى اللذة فيقول :

أيتها اللذة ! أيتها اللذة ! يا من كنت فيما مضى مسيطرة ٠

على أجمل عقل فى اليونان ،

لا تستخفى بى ، تعالى واسكنى لدى ،

انك لن تكونى عندى بلا عمل ٠

وكيفما كان سعيه وراء الملذات ، فمن المؤكد أن حقيقة الأمر قد تأثرت بفعل الأساطير التى نسجت حول

سمعة هذا الرجل « الطيب » · وهناك شيء آخر لا تعرف الحقيقة عنه بدقة قاطعة ، هو حديثه ! أكان مملا ؟ أكان طليا ؟ والآراء في ذلك متناقضة : كتب فولتير الى فوفنارج Vauvenargues : « ان طبيعة هذا الرجل الساذج من البساطة بحيث كان حديثه لا يعلو على الحيوانات التي كان يمنحها الكلام · ان النحلة رائعة ، ولكن حين تكون في خليتها ، فان غادرتها لم تصبح أكثر من ذبابه » ! ·· بينما يرى « سانت بيف » أن صاحب الحكايات كان محدثا لطيفا في الأوقات التي لم يكن فيها مغرقا في التفكير والشرود · ويقول لويس راسين ان من الموضوعات التي كانت « توقظ » لافونتين وتثير تحمسه أفلاطون ··· ويضيف فيرجييه Vergier الى أفلاطون السلام والحرب ، النبيذ والنساء ! ·· ولكن أي فئة من النساء ؟ — هؤلاء اللائي لا يقتضي الوصول اليهن بذل جهد طويل !

ومشكلة الجهد الطويل تستتبع حتما الكلام عن مجموعة أخرى من عناصر شخصية لافونتين · كان كسولا ، ميالا الى الافراط في النوم ، ألم يسم نفسه « ابن الكسل والنعاس » ؟ لقد وصف بافيون Pavillon احدى جلسات الأكاديمية — وكان لافونتين عضوا فيها — ولم يفته أن يصور هذا الشاعر وهو غارق في سبات عميق ! ·· طبيعة هذا الرجل كانت تنزع الى العزلة والهدوء ، الى الملاحظة والتأمل : تأمل الغابات والمراعي والحقول وما تحتويها من زهور وعيون وحيوانات ، تأمل الحياة الساكنة الآمنة البعيدة

عن هيـاج النـاس ··· وفى عزلته كان يشعر دائمـا بالاكتئاب ، ذلك لأنه كان يظن أنه سيء الحظ ، وأن الاخفاق يلاحقه فى كل عمل يقوم به !

وشعوره هذا من ناحية ، وكسله من ناحية أخرى ، كانا يقويان ضعف ارادته ، ان صح التعبير ·· هذا الرجل الذى أسدى النصـح بسخاء الى الآخرين ، وقدم اليهم فلسفة عملية فى الحياة ، كان عاجزا عن توجيه حيـاته والعناية بشئونه الخاصة ، من هنا كان فى حاجة مستمرة الى من يأخذ بيده ويسهر على أموره : تكئته قد تكون دوقة بويون duchesse de Bouillon ، وقـد تكون مدام دى لاسبليير Mme de La Sablière ، وقد تكون مدام ديرفار Madame d'Hervart التى عاش فى كنفهـا أواخر أيام حياته · كان كل ما يشغله ويستهويه هو التأمل ـ كما قلت ـ فى هذه الدنيا بما فيها ومن فيها ، ولقد كان يؤمن بوجود اله منظم لها هو مصدر الصواب ··· كان حساسا الى أقصى حدود الحساسية أمام سحر الطبيعة ، لننصت اليه مرة أخرى وهو يذكر طرفا مما يحبه فى الحياة :

أن أهيم فى حديقة ، وأن أتوه فى غابة

أن أنام على الزهور ، وان أستنشق عبيرها

أن أصغى ـ وأنا سارح الخيال ـ الى خرير عين من العيون ··

أو الى جدول يتدفق ماؤه على الحصى ٠

أحب لافونتين كل هذا وغيره ، ومن المؤكد أنه أحب كذلك جلسات الأكاديمية الفرنسية التى كان يذهب اليها « ليرفه عن نفسه ! » ٠٠ كيف وفق فى الظفر بعضويتها ؟ لقد أخر انتخابه وكاد يمنعه نهائيا كره لويس الرابع عشر له ٠٠ هذا الرجل المستبد كان لا يتذوق النوع الأدبى الذى برع فيه لافونتين ٠ وفى عام ١٦٨٣ تنافس الشاعر وصديقه الناقد (بوالو) على كرسى شاغر بالأكاديمية ٠ ودار فى الجلسة نقاش طويل وعنيف طرفاه الأعضـــــاء الموالون للقصر من ناحية ، وكانوا يؤيدون مؤرخ الملك ٠٠٠ ورجال الأدب من ناحية أخرى ولا سيما هؤلاء الذين لم يسلموا من قلم بوالو ولســـانه ، وكان هؤلاء يدعمون لافونتين ٠ واسفر التصويت عن فوز هذا الأخير ، ولكن لويس استعمل حقه فى رفض اعتماد لنتيجة الانتخاب ٠٠ ولم ينقض عام حتى شغر كرسى آخر بالأكاديمية ، فانتخب له بوالو ، هنا رضى الملك وقال لمندوبى الأكاديمية : « ان اختياركم ديبريوه Despréaux (بوالو) يسرنى كثيرا ، وسوف يتقبله الناس جميعا بارتياح ، وأنتم تستطيعون الآن أن تستقبلوا السيد لافونتين ٠٠ لقد وعد بأن يكون عاقلا » !

ان لافونتين الآن فى الثانية والستين ، ولا يبقى له من عمره سوى اثنى عشر عاما ٠٠٠ وفى نفس السنة يخلو

فجأة قلب مدام دى لاسبليير اثر خيانة صديقها الماركيز دولافار Le Marquis de la Fare فتزهد فى الدنيا ، وتحاول التقرب الى الله بالتعبد والتوفر على عمل الخير ، كان سلوكها بمثابة قدوة لمحظيها ! ولكنه لم يقتد ، فاذا بموتها ــ بعد عشر سنين ــ يفاجئه موجها اليه انذارا أخير ! ... هنا تاب الى رشده ، وبدأ يغير طريقة حياته ، ويمنحها شيئا هو أكثر من الاعتدال فقد أخضع نفسه لتقشف شديد ... وقبل موته بشهرين كتب الى صديقه القديم فرانسوا موكروا Maucroix يقول : « آه يا عزيزى ! ان الموت ليس أمرا ذا بال ، ولكن هل تفكر فى اننى سأمثل أمام الله ؟ انك تعرف أى حياة عشتها ... » وحين توفى فى عام ١٦٩٥ عن أربعة وسبعين عاما لوحظ على جثته مسوح ... لقد كان قد لبسه ليقمع به جسده ، وليكفر به عن بعض ما اقترف فى حياته من آثام !

اعمال لافونتين الأدبية

لم يكن لافونتين يعرف أين توجد عبقريته ، فلم يستقر فى نوع من الأنواع الأدبية ، وانما كان ، دائم التجوال بينها جميعا ، وان كان ــ مع ذلك ــ كثير التردد على « الحكايات » أو « الخرافات » Des Fables التى تكدست وملأت اثنى عشر كتابا نشرها فى ثلاثة دواوين سنتناولها فى الصفحات التالية بالبحث والتحليل .

وشهادة لافونتين عن نفسه خير ما يقال عن عـدم استقراره هذا ، ومحاولته الابداع فى شتى أنواع الأدب ، لندعه يعترف :

انى فراشة الشعر ، أشبه النحل

وانى لشيء خفيف أطير الى كل موضوع

كتب ـ ارضاء لدوقة بويون واستجابة لرغبتها ـ مجموعة كبيرة من الأقاصيص بالشعر (Les Contes) وهو انتاج منحرف ينم عن مزاجه العابث وعن أبيقورتيه ، ويزخر بالتفاصيل التى قد تهدر كرامة القارىء أو تخدش حياءه ٠٠ شيء عجيب : لقد أصابت هذه الأقاصيص نجاحا كبيرا ! ٠٠ وكتب عددا من الكوميديات أهمها « الأغا » (L'Eunuque) التى قلد فيها الشـاعر اللاتينى تيرنس Térence ولكن هذا الجزء من انتـاجه لا يكاد يذكره أحـد ـ وألف مأسـاة لم يتمها هى صـوت اخيليوس La mort d'Achille ٠ وكتب رواية مطولة بعض فقراتها بالشعر أطلق عليها « مغامرات بسيشيه (Les aventures de Psyché) (بسيشه ـ فى الأساطير اليونانية ـ فتاة رائعة الجمال أحبها الحب وانتهى الأمر باقترانهما !) ولعل من أهم أصدق انتاجه الثانوى تلك القصيدة الطويلة التى قالها دفاعا عن فوكيه محاولا فيها انتزاع عفو لويس الرابع عشر عن صديقه ، هذه القصيدة هى Elégie aux Nymphes de Vaux التى أشرت اليها ٠ تضاف الى كل هذا

رسـائله الشعرية ، وكان أهم ما وجه منهـا الى هوينه Huet والى مدام دى لاسبلير ٠٠٠ الشيء الذى ينبغى ذكره هو أن الانتاج الوحيد الذى كان يتناسب مع عبقرية لافونتين هو « حكاياته » التى صاغها على ألسنة الحيوانات٠

« الحكاية » قبل لافونتين :

لقد عرفت معظم الشـعوب فى طفولتها الأقاصيص التى تسرد على ألسنة الحيوان ، ومن أشهر هذه الشعوب الهنود والاغريق ، والحكايات الهندية والاغريقيـة تكون المصدرين الأساسيين لخرافات لافونتين : أولا ، المصـدر الهندى : وتوجد هذه الحـكايات فى روايات سنسكريتية متعددة ترجع الى القرن العاشر قبل الميلاد ٠ وقد ترجمت الى اللغـة الفارسية فى القرن السـادس الميلادى بعنوان « كليلة ودمنة » ٠ وبعـد ذلك بقرنين نقلت من اللغـة الفارسية الى اللغة العربية ، ثم ترجمت من العربيـة الى العبرية ٠ وفى القرن الثالث عشر ترجمت من العربية الى اللاتينية ، وبعد ذلك بثلاثة قرون بدأت كتب الحـكايات المستوحاة من المصـدر الهندى (من الترجمة اللاتينية) تظهر فى لغات أوروبية متعددة من بينها الفرنسية ٠ وقد قرأ لافونتين ـ من هذه الكتب ـ كتاب جبرييل كوتييه Gabriel Cottier (أحاديث الحيوانات) الذى نشر فى عام ١٥٦٦ ، وكتاب بيير لاريفى Pierre Larivey (وعنوانه كتاب الفلسفة الخرافية) الذى ظهر فى عام

١٥٧٩ .. وفي عام ١٦٤٤ ظهرت في فرنسا للمرة الأولى طبعة من « كليلة ودمنة » معدلة ومترجمة من اللغة الفارسية ، وكان عنوانها : « كتاب الأضواء أو سلوك الملوك ، ألفه الحكيم الهندى بلبيه Pilay وترجمه الى اللغة الفرنسية دافيد ساهيد David Sahid من أصفهان كبرى مدن فارس » ...

ثانيا ، المصدر اليونانى : وليست اليونان أقل غنى من الهند بالخرافات ، فالحيوانات تتحدث بين الحين والحين فى مؤلفات كتابها أمثال Hésiode ، Archiloque و Stésichore ... La Batrachomyomachie, — أو الصراع بين الجرذان والضفادع ـ محاكاة هزلية بالشعر للحمة هوميروس ترجع الى القرن الخامس قبل الميلاد . وكثير من المؤرخين أمثال هيرودوت ، و Elien ، وديودور الصقلى ، والكتاب الأخلاقيين أمثال بلوتارك Plutarque رصعوا كتاباتهم بالحكايات التى تجرى على ألسنة الحيوانات . وبلغ بحب الاغريق لهذه الحكايات واهتمامهم بها أنهم كانوا يرتبونها فى فئات تبعا لمصادرها أو الطابع الغالب عليها ، فقالوا : « حكايات قبرصية » و « حكايات لاذعة » مثلا ، الا أن الأمر انتهى باندماج هذه الفئات جميعا وباتخاذها اسم « حكايات ايزوب » (Esope) . وتاريخ الأدب لا يكاد يعرف شيئا عن ايزوب هذا ، وان كان من المحتمل أنه عاش فى القرن السادس قبل الميلاد ... ولكن ترى هل ألف فعلا الحكايات المنسوبة اليه ؟ أما الأساطير

فتؤكد ، وأما التاريخ فيشكك لافتقاره الى الأدلة على أن الشيء الذى لا يحتمل الشك هو أن التراث الاغريقى نسب اليــه كثيرا من الحــكايات الخلقية ، وأن الأطفال كانوا يحفظونها عن ظهر قلب ، وأنه بلغ من حب سقراط لها أنه ـ كما قيل عنه ـ كرس أواخر أيامه في السجن لوضع بعضها فى قالب شعرى • واذا كان نقل هذه الحكايات لم يصبها بتعديل كبير فى جوهرها ، فقد اختلفت الأساليب التى كتبت بها • وأحسن صياغة لها تنصب الى Babrios الذى يسميه لافونتين Gabrias ، والذى يرجح أنه عاش فى سوريا فى أواخر القرن الثانى الميلادى • واذا كانت مجموعة الحكايات الايزوبية لم تكتشف الا فى عام ١٨٤٣ فى خزائن دير يقع فى جبل Athos ، فمن المؤكد اذن أن لافونتين لم يطلع عليها باللغة اليونانية ، وانما عن طريق الترجمات التى ترجــع الى الناقلين اللاتينيين والبيزنطيين والعرب ، اذ الشيء الجدير بالذكر هو أن هذه الحكايات صادفت اهتماما بالغا فى عصر النهضة •

واذا كانت الحــكايات الهنــدية أغنى وأخصب من الحكايات اليونانية ، فان هذه الأخيرة كانت أسهل وصولا الى فرنسا ، وهى التى غذت لافونتين أكثر من غيرها • قد يقال : « والحكايات اللاتينية •• ما قصتها ؟ » ، والرد على ذلك هو أن الرومان لم يعرفوا بالقدرة الخلاقة التى ميزت العبقرية الاغريقية • من هنا نجد أنهم لم يبتكروا خرافاتهم ابتكارا ، وانما استمدوها من خرافات الاغريق • ومن هنا

يمكن القول ان حكايات Phèdre هى عينها حكايات ايزوب ، وأن فضـــل « فادر » لا يعدو أن هـذا الكاتب اللاتينى نظم بأســلوب جـذاب الحـكايات الايزوبية التى كان Démetrius de Phalère قد صاغها بالنثر فى القرن الثالث قبل الميلاد .

نظرية الخرافة عند لافونتين وفنه

يقول لافونتين فى مقدمة « الحكايات » : « ان الحكاية تتكون من جزئين يمكن تسمية أحدهما « الجسم » والآخر « الروح » : الجسم هو السرد ، والروح هى المغزى .. ويحدد لها هدفا مزدوجا ، فهى يجب أن تعلم الناس شيئا عن طريق المغزى الذى تحتويه وهى ينبغى أن تثير المتعة فى النفوس ليجىء هذا المغزى فعالا قادرا على الاقناع ... كيف نكفل التعليم بالحكاية أو الخرافة ؟ بأن نمنحها طابعا خلقيا وعلميا معا : خلقيا لجعلها تسهم فى تكوين الأخلاق وملكة الحكم على الأشياء ... وعلميا بالحرص على جعلها قادرة على تبصير الانسان بخصائص الحيوانات ، وبالأسباب التى تدعو الى مقارنة بعض الناس ببعض فصائل الحيوان . وكيف نحقق الامتاع بالخرافة ؟ بالتنوع ... لا تنويع الموضـوعات فحسب ، وانما أيضـــا تنويع طرق التعبير وتفاصـيل السرد ، كما يحدث فى المحادثة ... وجدير بالذكر أن لافونتين يستجيب هنا للمبادىء ـ فى خطوطها

العريضة ـ التى عرفت عن الخرافة قبل العصر الكلاسيكى الفرنسى ٠

والطابع المبتكر فى حكايات لافونتين هو أنه جعل من كل منهسا دراما مصغرة : فيها « ديكور » (هنا غابة أو حديقة ، وهناك جدول أو نهـر ٠٠٠) ٠٠٠ وفيهـا شخصيات : هذه الشخصيات قد تكون حيوانات ، وهذا هو طابعها الأصيل ، لأن لافونتين يحب الحيوانات ولا يجد فيها مثل ديكارت مجرد آلات تتحرك ، ويراها قادرة على الاحساس والحكم على الأمور ٠٠٠ من هنا صور بالدقة أشكالها وتصرفاتها ، وحلل خصائصها ، وابرزها لنا فى صور شخصيات بشرية ٠٠٠ وقد تكون شخصيات الدراما بشرية فعلا ، ذلك لأن للناس هم الآخرون دورا فى حكايات لافونتين وهو يصورهم بثيابهم ولغتهم وطبائعهم وعيوبهم الأبدية من مداهنة ودهاء ، من عنف ورياء ، من تهـور وطيش ٠٠٠ الخ ٠٠٠ وفيها حركة : فخرافة لافونتين عالم متحرك ، وكل حركة تحتوى على عرض وعقدة وحل ٠٠٠ وقد تكون الحكاية ملهاة مثل « الاسكافي ورجل المال » ٠ أو مأساة ، مثل « الأسد والذئب والثعلب » ٠٠٠ الخ ٠

صحيح أن معظم موضوعات حكايات لافونتين كانت معروفة قبله ، ولكنه استطاع أن يمنحها طابع شخصيته ، وأن يجددها بمزاجه الفنى المرح بحيث جعل منها فنا مبتكرا يحمل اسمه ، يقول عن المرح :

« ان الناس يريدون الجديد والمرح ··· وأنا لا أسمى مرحا ما يثير الضحك وانما نوعا من الطلاوة وسمة ممتعة يمكن منحها جميع الموضوعات ، حتى أكثرها جدية » ··· على أن المرح لا يتنافى مع الحقيقة والوصف الساخر الذى يهدف الى الاصلاح فينبرى للعيوب والرذائل · يقول :

انى أحاول فيها (فى حكاياته) أن أسخر من الرذيلة
فليس فى مقدورى أن أنبرى لها بذراعى هرقل

ملخص الحكايات

لفظ « ملخص » أطلقه هنا جزافا ، ذلك لأنه يصلح لجميع الدراسات التى تدخل سجل « تراث الانسانية » ماعدا تلك التى ننشرها اليوم عن لافونتين · ولا أشك فى أن القارىء يفطن الى السر فى هذا : فمؤلف لافونتين ليس أولا كتابا واحدا وانما اثنا عشر كتابا نشرت تباعا فى ثلاثة دواوين : الأول يضم ستة منها (١٦٦٨) · والثانى يحتوى على خمسة (١٦٧٨) والثالث نشر منفردا (١٦٩٤) والأهم من هذا أن حكايات لافونتين لا تكون وحدة متماسكة ، وانما هى حكايات وكفى ! ، حكايات تقتصر أو تطول كتلك التى تعلمناها فى المدرسة الابتدائية دون أن نعرف أنها من انتاج لافونتين ، فمن منا لا يعرف قصة الذئب والحمل ، أو قصة الغراب والثعلب ، أو قصة الراعى والذئب ، أو قصة الدب وصاحبه ؟ ! حسبى هنا أن أشير

الى أهم هذه الحكايات التى سيجد القارىء حافزا الى الرجوع اليها ، ولذة فى الاطلاع عليها •

من الكتاب الأول :

الصرصـــور والنملة ــ الغراب والثعلب ــ الذئب والكلب ــ فأر المدينــة وفأر الحقول ــ الذئب والحمل ــ الموت والحطاب (الانســان يفضــل الحيــاة الشــاقة على الموت) ــ شجرة البلوط وعود البوص (ربما كانت هذه الحكاية أحسن ما فى هذا الجزء •• مغزاها أن المرونة أجدى من التصلب) •

من الكتاب الثانى :

النسر والخنفساء (الخنفساء تثأر للأرنب الذى خطفه النسر بأن تسرق بيضه ثلاثة أعوام متتابعة فتجبره على الاعتراف بجرمه) الأسد والفأر (مغزاها أن الانسان كثيرا ما يحتاج الى من هو أضعف منه) ــ رجل الفلك الذى هوى فى بئر (استطراد فلسفى بشعر رصين) ــ الأسد والذبابة الصغيرة (يقينا أنها أحسن ما فى هذا الجزء ، انها تشبه الملحمة فى حركتها وسمو أسلوبها) •

من الكتاب الثالث :

الطحان وابنه والحمار (ملهــاة رائعــة تحتوى على درس بليغ فى الأخلاق : اذا كان الاصرار رذيلة الحمقى ،

فان التردد يشين السلوك ويقضى على فاعلية الجهود) ـ الضفادع التى طالبت بملك (تصوير لتقلب الشعوب ••• لقد دفع الغرور الضفادع الى الاطاحة بسيدها الذى كان دمث الخلق ، محبا للسلام ، فأرسل اليها ملك الآلهة طائرا كبيرا ليحكمها ، ولكنه أهلكها بالافتراس والتقتيل) ـ الثعلب والتيس (مثل للطيش وقصر النظر ••• « ان نظر التيس الى الأمور أقصر من لحيته » ••• لقد اجتذبه الثعلب الى بئر وقع فيها وصعد على ظهره ! خرج الثعلب ، وبقى التيس !) ـ الأسد الذى أدركته الشيخوخة (درس نافع للقوة التى يصيبها الاضمحلال) •

من الكتاب الرابع :

العجوز وأبناؤه (مغزى هذه الحكاية أن القوة تعتبر ضعفا بغير اتحاد) ـ الضفدع والفأر (أراد الضفدع أن يأكل فأرا فحاول بخدعة استدراجه ليلتهمه فى الماء ، وهنا ظهرت حدأة فالتهمتهما معا) •

من الكتاب الخامس :

الوعاء الخزفى والوعاء الحديدى (استنجد الوعاء الخزفى بوعاء من حديد ليحميه فى رحلته ، ولكنه ارتطم به فتهشم ••• مغزى هذه الخرافة أنه يجدر بالانسان

ألا يتحد الا مع من يتساوون به) ـ الفلاح وأبناؤه (حكاية مغزاها أن العمل أضمن وأثمن موارد الانسان) .

من الكتاب الساس :

الأرنب والسلحفاة (مغزاهـــا أن التسرع لا طائل فيه . ففي التأني السلامة) ـ سائق العربة التي انغرست في الوحل (الســائق يتخاذل ويستنجد بهرقل ، ولكن هرقل يرد عليه بقوله : « ان هرقل يريد أن يتحرك الناس قبل أن يســـاعدهم » ... ويتحفز الرجل ، ويوفق في انتزاع عربته من الوحل ... مغزى هذه الحكاية : « ساعد نفسك تساعدك السماء » .

من الكتاب السابع :

الحيوانات المصابة بالطاعون (هجاء موجه ضد ظلم الأقوياء والى المتملقين على السواء) ـ الفأر الذى انعزل عن الدنيا (هجاء ضد النفاق : فأر يتخذ من قطعة جبن صومعة يتبتل فيها .. ويلجأ اليه اخوانه في الضراء القديم ليمد اليهم يد المعونة ، ولكنـــه يخذلهم ، انه يكتفي بمنحهم بركاته) ! ، بلاط الأسد (درس في الحيطة : الأسد يدعو أتبـاعه الى زيارته في بلاطه ، أى في عرينه ذى الرائحة الكريهة .. ويستاء الدب فيسد أنفه ، واذا بالأسد يقضي عليه بالموت بتهمة الوقاحة .. ويزعم القرد أن الرائحـة

« الهية » فيتقزز الأسد من ملقه الوضيع ٠٠ أما الثعلب فيدعى أنه عاجز عن الشم لأنه مصاب بالزكام !)

من الكتاب الثامن :

الاسكافى ورجل المال (قصة اسكافى تلقى مالا لم يسعده فى حياته ٠٠٠ ولم يحقق لنفسه السعادة الا حين رد هذا المال الى صاحبه ٠٠٠ ان السعادة ليست فى المال ، وان الغنى الحقيقى فى زوال الهموم) الصديقان (حكاية ممتعة تنم عن حب لافونتين للصداقة المخلصة ٠ بعض أبيات هذه الحكاية صارت مأثورة :

ما أجمل أن يكون لك صديق حق
انه يبحث عن حاجاتك فى أعماق قلبك
وهو يجنبك الشعور بخجل
الافصاح عنها له بنفسك

جنازة اللبؤة (صورة صادقة لزيف عواطف رجال القصور ـ التعريب الكامل لهذه الحكاية فى ذيل هذا البحث) ٠

من الكتاب التاسع :

القط والثعلب (تفاخرا وهما فى الطريق : أيهما أبرع من الآخر ٠٠٠ وفاجأتهما مجموعة من الكلاب ٠٠

بادر القط بتسلق شجرة ، وأخفقت حيل الثعلب للفرار فخنقته الكلاب ، يقول لافونتين فى هذه الحكاية :

ان تعدد الحيل قد يفسد الأمر
لأن الانسان يضيع وقته في الاختيار والمحاولة
إنه يريد أن يفعل كل شيء
لتكن لديك وسيلة واحدة ، ولكن وسيلة طيبة)

الصدفة والمتنازعان (هجاء ضد التخاصم : مسافران يتنازعان على صـــدفة عثرا عليها ٠٠ ويمر قاض فيحسم ما بينهما من خلاف ٠٠ لقد التهم لب الصدفة وأعطى كلا منهما احدى فلقتى غلافها) ٠

من الكتاب العاشر :

يستهل لافونتين هذا الجزء بقطعة شعرية طويلة تقع فى مائتين وأربعين بيتا مهداة الى مدام دى لاسبلير وبعد أن يزجى مدحا رقيقا الى ولية نعمته ، ينبرى لديكارت داحضا نظريته القائلة بأن الحيوانات ان هى الا مجرد آلات تتحرك ، ومستندا فى مهاجمته الى كثير من الأمثلة التى تدل ـ على العكس ـ على ذكائها ، من هذه الأمثلة حكاية الفارين اللذين نجحا فى خداع ثعلب بأن سرقا بيضة منه ! كيف ؟ لقد استلقى أحدهما على ظهره ، وأمسك بالبيضة بين ذراعيه ، بينما أخذ الآخر يجره من ذيله ٠٠ السلحفاة

والبطتان (ان الغرور يؤدى الى أوخم العواقب : رفعت بطتان عصا بمنقاريهما ، كل منهما من طرف ··· وتعلقت سلحفاة بفمها فى وسط العصا ··· وأثار الركب فضول واعجاب المارة فكانوا يتنادون صائحين : « يا للأعجوبة ! تعالوا اشهدوا ملكة السلاحف » واذا بالسلحفاة ترد عليهم قائلة : « الملكة ! هذا حق ! انى أنا الملكة ! وحين تكلمت الحمقاء افلت فمها فهوت على الأرض وتهشمت) ·

فى الكتاب الحادى عشر :

لم يكن لافونتين يدرى أنه سينشر حكايات بعد اتمام هذا الجزء الأخير من الديوان الثانى ، فجعله بمثابة تذييل لكتبه السابقة ، مودعا فيه انتاجه ومتمنيا أن يصادف كتابا أفضل منه : يقول :

لقد افتتحت على الأقل الطريق
وسيتاح لآخرين أن يتموا ما بدأت

وهذا الجزء يحتوى على تسع حكايات أهمها :

« العجوز والشبان الثلاثة » (مر ثلاثة شبان بشيخ يزرع أشجارا ، فسخروا من شيخوختـــه الطموحة ، فرد الرجل بأن الأشجار التى يغرسها قد تنفع أبناءه ، وبأنهم — مع ذلك — قد يموتون قبله ··· وحدث بالفعل أن توفوا جميعا قبله ، فأقام الشيخ لذكراهم نصـــبا كان يرويه بدموعه) ·

فى الكتاب الثانى عشر (الديوان الثالث والأخير) :

كان لافونتين يدنو من نهـايته حين ألف هذا الجزء الذى نشره وهو فى الثالثة والسبعين من عمره • لقد فترت حيويته وغدا يهتم بالتفاصيل العقيمة ••• ومع ذلك فليس هذا الكتاب بالغ الرداءة ••• وأهم ما ورد فيه من حكايات : القط العجوز والفأر الصغير (عن الشباب الذى يزهو أن فى وسعه الحصول على كل شىء) ••• الغابة والحطاب (فى هذه الحكاية درس رائع للجاحدين) •

تحليل « الحكايات » :

يمكن أن نستخلص ما يلى من دراسـة حـكايات لافونتين :

١ ـ للافونتين طريقتـان مختلفتـان فى تأليف الحكايات : احداهما ميزت الديوان الأول ، والأخرى ميزت الديوان الثانى • كانت الأولى محاولة فاستحالت فى الشطر الثانى من انتاجه الى خلق بالمعنى الصحيح • بدأ لافونتين بحكايات بسيطة سهلة يرتبط فيها المغزى بالموضوع ارتباطا مباشرا (مثل الغراب والثعلب ـ الصرصور والنملة) •• ثم طور هذا النوع الأدبى بأن خرج بعض الشىء على طريقة ايزوب ، واذا بشخصيته تبرز بوضوح ابتداء من الكتاب السـابع • وباستثناء بعض قطع رديئة متفرقة ، يبـدو

لافونتين فى الديوان الثانى وقد صار مالكا لناصية فنه ، كما تكشف بعض حكاياته عن قدرة فلسفية تبرر مقارنته بكبار الشعراء المفكرين أمثال Lucrèce • من هنا نجده في البداية مترددا ينشر ديوانه الأول تحت هـذا الاسم المتواضع : « حكايات ايزوب ، نظم لافونتين » ••• ثم زاد طموحه فتطاول الى ما وراء الحكاية بشكلهـا الذى كان معروفا ، وأراد أن يوسع مجالها ويحيله الى « ملهاة عريضة ذات مائة فصل مسرحها العالم » • وعندما شعر بكيانه ووثق فى عبقريته لم يتردد فى أن يصيح قائلا :

ان تقليدى ليس أبدا عبودية •

انى لا أستعير سوى الفكرة والاطار والقوانين

التى كان أساتذتنا أنفسهم يتبعونها •

ألا يجدر فى هذا الصدد أن يقول لافونتين ما قاله بسكال عن نفسه : لا يجب أن يقول لى أحد اننى لم آت بجديد ، لأن ترتيبى للمواد جـديد » •• بل انه ليحق للافونتين أن يقول أكثر من ذلك ، انه صاحب الحكايات الوحيد الذى يعترف به تاريخ الأدب الفرنسى ، وان فنه ــ كما قال أحد النقاد ــ لينتمى الى الملحمة بطريقة السرد ، والى الوصف بالصور والى الملهاة بحركة الأشخاص و بتصوير أخلاقهم ، والى شعر الوعظ بالحكم •

٢ ـ آراء لافونتين تعتمد على فلسفة سليمة تعترف بحكمة الخالق ، وضعف الانسان ، وتبدل الحظ • والأخلاق عنده مستمدة من التجربة الانسانية : انها تحث الانسان على الحذر والحكمة والاعتدال فى الرغبات والتآزر وتنكر عليه الطيش والبخـــل والجحـــود •• وتلهب فيه روح الصداقة ••• الخ •

٣ ـ ابتكر لافونتين على مر الأيام أسلوبا تستحيل محاكاته ، واذا كان بوالو قد زعم أن هذا الأسلوب يشبه أسلوب مارو Marot ورابليه Rabelais فمن المرجح ـ تبعا لقول سانت بيف Sainte-Beuve ـ أن يكون هذا الزعم قد صدر عنه فى لحظة من لحظات المرح ولم يأت تعبيرا صادقا عن رأى هذا النقاد •

٤ ـ لا شيء أشبه بمسرحيات موليير Molière من خرافات لافونتين • ويقول نيزار Nisard « لقد اختص لافونتين بالحكاية ، كما اختص موليير بالملهاة » • أما أوجه الشبه بينهما فهى دقة الملاحظة وتصوير العيوب واحتواء كل من الحكاية والملهاة على عرض وعقدة وحل وحوار تشترك فيه كل شخصية بأسلوب الكلام الذى يلائم طبيعتها ودرجة ثقافتها ووضعها الاجتماعى (درجة الثقافة فى حكايات لافونتين بالنسبة للشخصيات الانسانية بالطبع) • ثم ان الدروس التى يوجهها كل منهما مستخلصة من التجربة التى اكتسبها بفضل عمق الملاحظة وطول التأمل •• أما أوجه

الاختلاف بينهما فمنا أن موليير يصور الأشياء بطريقة مكبرة فى ضوء المسرح (والمسرح مرآة مكبرة) بينما يصورها لافونتين تصويرا دقيقا ورقيقا ·· ومنها أن موليير هاجم عيوب البرجوازية والآفات التى لا تسلم منها حياة الأسرة ، بينما هاجم لافونتين هجوما متحررا الملك وذوى الجاه ورجال الدين ·· ومن أوجه الاختلاف أيضا أن موليير أعمق فى الوصف بينما لافونتين أكثر تنويعا فى الموضوعات ، لأنه لا يغفل أى شىء فى ملحمته الطويلة ··· وكيفما كانت درجة تشابههما ، فقد قال عنهما سانت بيف : « ان الانسان لا يفصل موليير ولافونتين أحدهما عن الآخر ·· انه يحبهما معا » ·

٥ ــ ما السر ــ وعبقرية لافونتين بارزة الملامح فى حكاياته ــ فى أن بوالو ، وهو مقنن الشعر فى العصر الكلاسيكى ، لم يذكر شيئا عن « الحكاية » ضمن أنواع الأدب الثانوية التى أحصاها فى الغناء الثانى من كتابه « فن الشعر » ؟ (١) ·· ان المجال لا يتسع هنا لأن أسوق جميع افتراضات نقاد الأدب فى هذا الشأن ، وأن اتناولها بالبحث والتعليق ، ولكن حسبى أن اكتفي باثنين منها · أما سانت بيف فيعزو صمت بوالو الى صدى استياء لويس

---

(١) عن تصنيف بوالو Boileau لانواع الادب ارجع الى « تراث الانسانية » العدد الثالث مارس ١٩٦٣ « فن الشعر لبوالو بقلم الدكتور على درويش » ·

الرابع عشر من لافونتين ـ وهو المتشدد فى مسائل اللياقة ـ منذ نشر أقاصيصه Les Contes ... (وقد كان مؤلف الأهاجى صاحب حظوة لدى هذا الملك) ... وأما ميشو Michaut فيقول « ان الخرافة » لا تخضع لقواعد محددة بينما كانت مهمة بوالو وضع القواعد والقوانين .. ثم ان ما ذكره بوالو عن قواعد الفن العامة (فن الشعر : الغناء الأول) تكفى لأن تنسحب على « الخرافة » مثل انسحابها على الرسالة الشعرية أو الاقصوصة » ... وكيفما كانت حقيقة الأمر ، فان اغفال بوالو ذكر لافونتين وحكاياته فى « فن الشـــعر » يعد أحد أخطائه التى لم تغتفرها له الأجيال التالية .

٦ ـ يثير جان جاك روسو فى القرن الثامن عشر ولامرتين Lamartine فى القرن التاسع عشر مســألة أخلاقية حكايات لافونتين ، وينكران صــلاحيتها لتثقيف الطفل ... فما موقف كل منهما ؟ ... يقول روسو فى كتابه « اميل L'Emile : « لن يحفظ اميل شيئا على الاطــلاق عن ظهر قلب ، حتى ولا الخرافات ... حتى ولا خرافات لافونتين بالرغم من أنها جذابة ولا تكلف فيها ». هنا يخيل لقارىء الكتاب أن روسو يناقش مسألة الحفظ بالنسبة للأطفال ، الا أن هذا الكاتب الفيلسوف يرمى ـ بعد هذه المقدمة الخبيثة فى لباقتها ـ الى مهاجمة لافونتين مهاجمة مباشرة والى تسفيه حكاياته ، فيدخل بعد ذلك فى سفسطات بارعة ... يقول ان الأطفال جميعا يلقنون حكايات

لافونتين بينما لا يفهمها أحد منهم ·· وهم ان فهموها كانت الطامة ! ذلك لأنها تحضهم على الرذيلة أكثر من حضها لهم على الفضيلة · ويعلق ـ على سبيل المثال ـ على حكاية الغراب والثعلب فيقول انهـا تضم كلمات كثيرة يتحتم شرحها للطفل ، وألفاظا لا تستعمل الا في الشعر الأمر الذى سيدفع هذا الطفل الى السؤال عن علة اختلاف لغة الشعر عن لغة النثر ··· فبماذا سيرد عليه ؟! (سفسطة كما قلت) · ويستطرد قائلا : « ان الثعلب فى هذه الخرافة قد شم رائحة الجبن (الذى فى فم الغراب) لابد أن رائحته نفاذة الى هذا الحد ·· فهل يمرن الطفل هكذا على الحكم الصائب على الأشياء ؟! (سفسطة أخرى !) · ويعود روسو الى الحديث عن الأثر العكسى الذى يمكن أن تحدثه الحكايات فى الطفل ، ثم يقول ان بعض الأطفال يهزأون بالغراب ولكنهم جميعا يحبون الثعلب · ثم يزعم بعد ذلك أن دور الأسد فى حكايات لافونتين من شأنه أن يجعل الأطفال يتشبهون به فى سلوكهم ، فان وجدوا فى مجال تقسيم شىء حاولوا الاستئثار بنصيب الأسد ! ··· (سفسطة أخرى ··· الحق ان اتهامات روسو لا تستحق أى دفاع) ··

ويقول لامرتين فى مقدمة « التأملات » : « ان حكايات هذه الحيوانات التى تتكلم ، ويعطى بعضها بعضا دروسا ، والتى يسخر بعضها من بعض ··· حكايات هذه الحيوانات الأنانية ، الساخرة ، البخيلة ، عديمة الصداقة ، الأكثر شرا منا ، تثير التقزز فى نفسى · حكايات لافونتين عبارة

عن فلسفة صلبة ، باردة ، أنانية ، صادرة عن رجل مسن أكثر منها فلسفة كريمة سهلة تصلح لطفل • وهي بالنسبة لعمر الطفل ليست بمثابة اللبن وانما بمثابة المرارة ••• لقد كان لافونتين فيلسوفا ذكيا ، ولكنه فيلسوف ساخر ، فبماذا يحكم على شعب يبدأ تعليم أبنائه بدروس رجل ساخر ؟ ••• الخ » • وهنا يمكن التساؤل عن السر الذى دفع لامرتين الى كتابة هذه الصفحة المهينة ، ألم تجيء حكايات لافونتين تصويرا حيا وصادقا للمجتمع ؟ • لنعهد الى سانت بيف بتفسير موقف الشاعر الرومانسي ، يقول : « انى لا أريد أن أرى فى هذه الصفحة الا أثر التنافر بين طبيعتين ، والصراع بين شعرين ••• لقد كانت محاولة لامرتين فى ميدان الشعر تهـدف ا منح فرنسـا شعرا عاطفيا ، ميتافيزيقيا ، صـوفيا بعض الشيء ، غنائيا ، موسيقيا ، دينيا وانسانيا مع ذلك ، شعرا يأخذ العواطف مأخذ الجد ولا يبتسم » • ثم يلخص سانت بيف ببلاغة حكمه الفاصل الذى يضع كلا من الشـاعرين فى مكانه الحقيقى ، يقول : « ••• وبكلمتين نقول ان لامرتين يشرئب نحو الملاك ، أما لافونتين فهو فى الوقت الذى يبدو فيه أنه يرتفع بالحيوان الى مرتبة الانسان لا ينسى أبدا أن الانسان ليس الا أول الحيوانات » • ان عبقرية لافونتين فى هذه العبارة الموجزة : لقد ترك انتاجا فذا أهم خصائصه الطرافة والانسانية والواقعية ••• فترى اهتمام الأجيال المتعاقبة « بالتأملات » منذ انتهت المدرسة الرومانسية ،

بينما ازداد تأثرها « بالحكايات » ••• لافونتين يكبر لامرتين بعمره ، ويكبره أيضا بمجده ••• والفرق بين « العمرين » أكثر من قرن ونصف ، والفرق بين المجدين هو أن لامرتين يمتع ، ولكن لافونتين يمتع ويعلم •

اثره فى تراث الانســـانية :

ان القيمة الحقيقية لانتاج ما لاتقاس بالاعجاب الذى تثيره بقدر ما تقاس بالتأثير الذى تحدثه على مر الأيام ، ويمكن القول فى هذا الصدد ان حكايات لافونتين لا تشعر بأى حسد ازاء روائع الأدب الفرنسى • يروى عن لويس راسين (ابن الكاتب التراجيدى) أن موليير قال له : « علينا ألا نسخر من « الرجل الطيب » (لافونتين) فربما عاش أكثر منا جميعا (يقصد عمر الانتاج) » ••• ولقد صدقت نبوءة خالق الملهاة فى فرنسا ، اذ بقى لافونتين وسيظل حيا ما بقى الأدب ، بينما دفنت مؤلفات كثيرين من معاصريه فى مقبرة الكتب ، ودفنت فيها كذلك كتب الحكايات التى ألفها جميع من حاولوا تقليده •• كلها بغير استثناء ! ولم يعد انتاج لافونتين غذاء عقليا خفيفا يعطى للأطفال ، وانما عرفت على مر الزمن القيمة الحقيقة لعناصره الغذائية فاعتبر بمثابة وجبة دسمة يمكن كذلك أن تشبع حتى ذوى العقول الفذة وها هو أندريه جيد André Gide أحد أعلام الأدب الفرنسى فى النصف الأول من هذا القرن ، بل أحد أعلام الأدب العالمى فى جميع العصور يصرح فى احدى كتاباته

بأنه ـ وهو فى أحراش الكونغو ـ كان يعيد قراءة حكايات لافونتين من أولها الى آخرها ، ويقول : « أى أدب قدم شيئا أجود وأكثر حكمة وكمالا » مما نجده فيها ؟

والحق ان لافونتين ـ كما قلت من هؤلاء العباقرة الذين يتضاعف مجدهم على مر الأيام ، فمثلا أشاد بعبقريته فولتير (فى القرن الثامن عشر) فلما أتى القرن التاسع عشر اذا بسانت بيف يقول : « لو أن ناقدا أكثر جرأة من فولتير أتى يقول : « ان هوميروس فرنسا الحقيقى ··· من يظن ذلك ؟ ··· هو لافونتين » ، لفكرت الأجيال المتعاقبة لحظة ثم لصاحت قائلة : « هذا صدق » · ولقد كان سانت بيف هو نفسه بالفعل ذلك الناقد الأجرأ الذى أراده لتقويم عبقرية لافونتين ·· ألم يقل فى مكان آخر : « ··· ان هوميروس الفرنسيين ـ من يظن ذلك ؟ ـ هو لافونتين » ·

لم تكن حكايات لافونتين حديثا بالنسبة لمعاصريه ، فلم تثر ضجة أو جدلا ، ومع ذلك فقد أثرت فيهم وفى الأجيال التالية أعمق التأثير · لا لأنها فحسب نموذج للاجادة فى الشعر ، ودراسة صادقة لسلوك الانسان ، ومجموعة من النصائح الخلقية العملية ، ولكن لأنها أيضا خلق جديد لم يضارع فيه لافونتين أحد ـ كما قلت ـ بالرغم من المحاولات العديدة · وحسبنا أن نلقى نظرة سريعة على طبعات هذا المؤلف الفذ المتتالية لندرك مدى ما أحرزه من نجاح مطرد ·· نجاح كان مغريا لديار النشر الى حد أن بعضها نشرت الطبعات المزيفة الواحدة تلو

الأخرى ! من هذه الطبعات المزيفة واحدة في فرنسا في عام ١٦٦٨ ، وأخرى سنة ١٦٨٢ في امستردام ، وثالثة سنة ١٦٨٨ في انفرس Anvers ببلجيكا ، ورابعة في لاهاى بهولنده ، وخامسة في انفرس من جديد ، وسادسة وسابعة في امستردام مرة أخرى ، وفي سنة واحدة (١٦٩٣) ، وطبعتان مزيفتان كذلك في ليون ، فضلا عما تدفق من هذه الطبعات المزيفة على الأقاليم الفرنسية منذ عام ١٨٦٩ ... أما الطبعات الحقيقية فيقدر عددها بأكثر من مائة وخمس وعشرين طبعة في القرن الثامن عشر ، وبألف ومائتين في القرن الذى تلاه ، ومعظم هذه الأخيرة طبعات مدرسية . حقيقية لقد صدق رينيه بريه René Bray حين قال : « ما أسعد البلد الذى « يملك » واحدا كلافونتين يعلم أبناءه ! » .

وما أكثر ـ كما ذكرت ـ الكتاب الذين قلدوه ! لقد بلغ عددهم في القرن الثامن عشر أكثر من مائة في فرنسا وحدها ، وتخطى عددهم هذا الرقم في القرن التاسع عشر ، ولكن ما من واحد منهم يستحق الذكر ، لأن لافونتين كان قد أبلغ الخرافة ذروة الكمال طفرة واحدة ، فلم يبق في مجالها من بعده مكان لأحد ... هؤلاء المقلدون استعاروا من حكاياته مادتهم ، وطعموا انتاجهم بأبيات من شعره ، وحاولوا أحيانا أن يعتمدوا على أنفسهم فأسفوا اسفافا يذكرنا بعبقرية جفونتين ! ماتوا هم وبقى لافونتين ، لأن حكاياته ـ على حد قول نيزار Nisard هى اللين الذى

يتغذى به الطفل ، والخبز الذى يأكله الرجل ، وآخر طعام دسم يتناوله الشيخ ٠٠٠ معنى هذا أن هذه الحكايات تسهم فى تكوين عقل الطفل ، وتفيد الرجل فى حياته العملية ، وتتجاوب ــ عند الشيخ ــ مع خلاصة تجاربه فى الحياة ٠

من حكايات لافونتين :

جنـازة اللبؤة

ماتت زوجة الأسد ،
فهرول كل واحد
ليوفى للأمير
بعض عبارات العزاء
المفعمة بالحزن ٠
وأمر الأمير باخطار اقليمه
بزمان الجنازة ومكانها ،
كما أمر بأن يحضرها حرس القصر
لينظموا الموكب ،
وليصحبوا الرفاق الى أماكنهم ٠
تصور أن كل واحد من هؤلاء الرفاق قد حضر
وأمعن الأمير فى الصراخ

وكان عرينه يدوى •

ان الأسود لا تملك معبدا غير عرينها •

وسمع أفراد الحاشية ـ متشبهين بالامير ـ

وهم يزأرون كل بلهجته •

انى أعرف البلاط بأنه بلد الناس فيه

على استعداد للابتئاس والاغتباط بالرغم من انهم
لا يبالون بشيء •

انهم يتصرفون بما يرضى الأمير ، فان أعجزهم الأمر
حاولوا على الأقل التظاهر به

شعب كالحرباء ، شعب يحاكى سيده •
كان يخيل للمرء وكأن روحا واحدة تشيع فى ألفـه
من الأجساد •

ان الناس فى هذه الحال مجرد آلات •
ولنعد الى شأننا •

لم يزرف الوعل عبرة واحـدة ، اذ كيف كان فى
مقدوره أن يبكى ؟

ان هذا الموت يثأر له : لأن اللبؤة فيما مضى
كانت قد خنقت زوجته وابنه •

وباختصار لم يبك • وراح أحد المداهنين يقول
ويؤكد أنه شاهده وهو يضحك •

ان غضب الملك ـ كما يقول سليمان ـ •
غضب فظيع ، ولا سيما ان كان الملك أسدا ،
ولكن الوعل لم يكن متعوذا على القراءة •
قال له الملك : « أيها الهزيل ساكن الغابة ،
أنت تضحك ولا تتبع هذه الأصوات الناحبة ! •
اننا لن ندخل أبدا فى أعضائك الدنسة
أظافرنا المقدسة ، فتعالوا يا ذئاب ؟ •
خذوا بثأر الملكة واقتلوا جميعا
هذا الخائن من أجل روحها المبجلة » •

حينئذ قال الوعل : « مولاى ، ان وقت البكاء قد انقضى ،

والألم الآن لا طائل فيه ،
ان شريكتك الفاضلة قد ظهرت لى فى حلم
وهى مسجاة وسط الزهور ،
ولقد تعرفت عليها ،

وقالت لى : « أيها الصديق ، احذر أن يدفعك هذا الموكب الى البكاء حين سأذهب الى الآلهة •

فلقد حظيت فى رحاب بشتى أنواع النعيم
اذ تحادثت مع أمثالى من القديسين ،

لتدع الجزع بعض الوقت يلم بالملك ،

فذاك أمر يسعدنى » •• ولم تكد تسمع هذه الكلمات
حتى علت الصيحة : « أعجوبة ! مجد ! »

ولم ينل الوعل أى عقاب ، بل ظفر بعطاء ،
انك ان رفهت عن الملوك بذكر الأحلام ،
وان تملقتم ، وان سقت اليهم الممتع من الأكاذيب
فمهما كانت قلوبهم مفعمة بالسخط ،
فسيبتلعون الطعم ، وستصبح صديقا لهم

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٥/٤٩٣٩

ISBN — 977 — 01 — 4410 — X

مكتبة الأسرة



بسعر رمزى
خمسة وعشرون قرشا
بمناسبة
[illegible]

مطا[illegible]
الهيئة المص[illegible]
للكتا[illegible]